ظاهرة التغليب البلاغي في تفسير" فتح البيان في مقاصد القرآن"

زيب النساء*

مقيت جاويد**

إن اللغة العربية من أفضل اللغات وأوسعها، وقام المسلمون بحفاظ اللغة العربية بدور كبير لأنها لغة القرآن الكريم ولغة الحديث والمصادر الإسلامية الأخرى، وأنها مظهر من مظاهر الإسلام وأهم شعيرة من شعائره الكبرى. وهكذا إن العلاقة بين اللغة العربية والناس من شبه القارة الهندية الباكستانية علاقة دينية عميقة وحميمة. ولم تكن رغبة علماؤهم واعتناؤهم أقل من غيرهم في تعلّم العربية. إنهم بذلوا كل الجهود الممكنة لنشر اللغة العربية في شبه القارة. ولهم اسهامات قيّمة في إثراء التراث العربي الإسلامي كما أنهم أدّوا دوراً بارزاً في مجال التحقيق والتصنيف والتأليف، وتركوا آثاراً خالدةً.

والعلامة صديق حسن خان القنوجي يعد من أبرز الرجال الإسلاميين في شبه القارة.كان يلم إلماماً بالغاً بالعلوم والآداب والمعارف في الموضوعات المختلفة مثل التفسير، والحديث، والفقه، والبلاغة، والأدب، وإدارة شؤون البلاد، كما كان عالماً كبيراً، ومفسراً للقرآن الكريم، وباحثاً عالي القدر، والآن نذكر بعضا من صاحب التفسير، وتفسيره بالاختصار.

صاحب التفسير: العلامة السيد صديق حسن خان القنوجي:

هو صديق حسن بن أولاد حسن الحسيني البخاري القنوجي[1] ، وهو سيد من السادات. ولد القنوجي يوم الأحد، التاسع عشر من شهر جمادى الأولى سنة 1248هـ (1832م) في بلدة بريلي، موطن جده لأمه[2] ،ونشأ في قنوج.[3]

لما بلغ صديق حسن إلى السنة السادسة من عمره، توفي أبوه، فصار في حجر والدته يتيماً، وقرأ بعض أجزاء القرآن ومبادئ الفارسية في الكتّاب. وقرأ مختصرات الصرف، والنحو، والبلاغة، والمنطق، وبعض الكتب الابتدائية، ومختصرات العلوم من الفلسفة على شقيقه الأكبر الشيخ العلامة أحمد حسن. وصفه الشيخ عبدالحي اللكنوي صاحب "نزهة الخواطر" بعلامة الزمان، وترجمان الحديث والقرآن، ومحي العلوم العربية، وبدر الأقطار الهندية. وكان الشيخ عالماً كبيراً وزاهداً، وصاحب المصنفات الكثيرة الممتعة. ويبلغ عدد مؤلفاته إلى اثنين وعشرين ومائتين[4]، ولا نذكرها هناك بسبب الإطالة.

لكن ما هو جدير بالذكر هنا هو أن الشيخ القنوجي كان سريع الكتابة حلو الخط، يكتب كراستين في مجلس واحد بخط خفي في ورق عال. ولا يخلو تأليفه عن أشياء، إما تلخيص أو تجريد، أو نقل من لسان إلى لسان آخر. وكان غاية في صفاء الذهن وسرعة الخاطر، وعذوبة التقرير وحسن التحرير، وشرف الطبع وكرم الأخلاق، وبهاء المنظر، وكمال المخبر، ثم له من حسن الأخلاق أوفر حظ وأجل.[5]

لقد أصيب الشيخ صديق حسن القنوجي في آخر عمره بمرض الاستسقاء الذي بدأ يزداد يوماً فيوماً إلى أن توفيّ في يوم الأربعاء 29/ 6/ 1307هـ.[6]

---

*طالبة الدكتوراة بقسم اللغة العربية، جامعة بنجاب، لاهور، باكستان

**الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية جامعة بنجاب، لاهورر، باكستان

منهج تفسيره: فتح البيان في مقاصد القرآن:

قد انتهج صديق حسن القنوجي في تفسيره بحيث أنه جمع من الرواية عن السلف، والدراية بالاستنباط، ومناقشة الآراء والترجيح. فسّر الكلمات القرآنية لغة، ونحواً، وصرفاً، وبلاغة، وتجويداً أيضاً، و ذكر ما في تفسير الآية من القراءات المختلفة، كما استدّل بكثير من الأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة، والتابعين، والمفسرين. ثم إنه رجح بعض الآراء التي نقلها، كما استنتج من الآيات القرآنية الأحكام الفقهية المختلفة، وناقش بعض المسائل الفقهية، وأشار إلى المرويات الضعيفة، وذكر صور الترجيح للمرويات الضعيفة، وقد استفاد في تفسيره كثيراً من تفسير السيوطي (الدرر المنثور في التفسير بالمأثور). و أضاف إلى ذلك إضافات استفادها من كتب أخرى، كما بيّن ذلك في مقدمة تفسيره.

والجدير بالذكر هنا أن هذا التأليف القيم لا يزال يطبع منذ عصر تأليفه، وما زال العلماء والقراء يشتغلون جواهرها.إن لهذا التفسير أسلوباً سهلاً رائعاً، كما إنه نخبة الفصاحة والبلاغة، وزيادة قيمة عالية في الآداب العربية. و من مزايا هذا التفسير أنه يجمع بين الرواية والدراية. اهتم القنوجي بإيراد سبب نزول الآيات القرآنية في تفسيره لأن السبب يعيّن على فهم الآية. ثم فسّر الآيات المختلفة بسرد أقوال اللغويين والاستشهاد بالشعر العربي. ونجد في التفسير "فتح البيان" القراءات المختلفة وخاصة القراءات التي لها علاقة بالمسائل الفقهية. اهتم الشيخ بذكر المسائل التي نجد فيها خلافا بين الأئمة الكرام. والأهم هو أنه لا يتعصب لمذهب واحدٍ من المذاهب بل يرجح الدليل دائما. ونجد هذه الأمثلة كثيرة في تفسيره. وأيضاً لا يغفل عن مسائل الإجماع والاتفاق. ثم إن العلامة القنوجي كثيراً ما يذكر الآيات الناسخة والمنسوخة وهذا الأمر له أهمية كبيرة وقد ورد ذلك في مواضع كثيره من تفسيره. ويرى الباحث اثناء دراسة هذا التفسير أنّ القنوجي استدل بأقوال علماء النحو كثيراً في تفسيره موضحاً مفاهيم الآيات القرآنية. وهذا الأمر أكثر من أن يحصر في تفسيره.

واهتمامي في هذا البحث أن ألقى الضوء على الظاهرة البارزة "التغليب البلاغي وأنواعها" في تفسير "فتح البيان في مقاصد القرآن". وهي كما يلي:

التغليب في اللغة والاصطلاح:

ورد في لسان العرب: "غلّبته أنا عليه تغليباً... إذ قالت العرب: شاعر مغلّب، فهو مغلوب، وإذ قالوا: غُلّب فلان، فهو غالب.[7] وجاء في معجم النفائس الوسيط: غلب: غلبه، غلباً، وغلبة، قهره. غلّبه عليه: جعله يغلبه وفلاناً على بلذكذا: جعله يتغلّب عليه.[8]

أمّا في الاصطلاح إنّ التغليب هو اعطاء أحد المتصاحبين في اللفظ، أو المتشاكلين المتشابهين في بعض الصفات، أو المتجاورين أو نحو ذلك حكم الآخر.[9] يعني إن التغليب هو ترجيح أحد الشيئين على الآخر في إطلاق لفظه عليه.[10]

تمتاز اللغة العربية بالخصائص والمزايا والظواهر، ويدور الحديث في هذا البحث عن أهم هذه الظواهر وهي "ظاهرة التغليب البلاغي". وأجمل الزركشي[11] هذه الظاهرة في عشرة أنواع وهي:

1. تغليب العاقل على غير العاقل
2. تغليب المذكر على المؤنث
3. تغليب المتكلم على المخاطب والمخاطب على الغائب
4. تغليب المتصف بالشيء على ما لم يتصف به
5. تغليب الأكثر على الأقل
6. تغليب الجنس الكثير الأفراد على فرد من غير هذا الجنس مغموز فيما بينهم

7. تغليب الموجود على ما لم يوجد
8. تغليب الإسلام
9. تغليب ما وقع بوجه مخصوص على ما وقع بغير هذا الوجه
10. تغليب الأشهر

بعد أن حدّدنا ما قصدنا إليه في هذا البحث، نحاول عرض ظاهرة التغليب في تفسير "فتح البيان في مقاصد القرآن" للسيد صديق حسن خان القنوجي وآراءه في هذا الموضوع البلاغي، والآن نلتزم أن نقدم الآيات القرآنية المتعلقة بالتغليب البلاغي تحت عشرة أنواعها.

أولاً: تغليب العاقل على غير العاقل:

هو أن يتقدم لفظ يعمّ من يعقل ومن لا يعقل، فيطلق اللفظ بالعاقل على الجميع. كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[12] بحيث ذكر الله سبحانه وتعالى كلمة "العالمين" وهي جمع المذكر السالم وتستعمل لذوي العقول. ولكن المراد هناك في الآية العقلاء وغير العقلاء على طريق التغليب لأنه سبحانه وتعالى رب جميع العالم، من يعقل ومن لا يعقل، وهذا من باب تغليب العاقل على غيره.

وقال صديق حسن القنوجي في تفسير الكلمة "العالمين" أي العالمين جمع عالم لا واحد له من لفظه، وهو اسم لما يعلم به غلب فيما يعلم به الصانع من المصنوعات، والعالم كل ما خلق الله تعالى في الدنيا والآخرة وعلى هذا يكون جمعه بالياء والنون تغليباً للعقلاء على غيرهم، ونقل القنوجي قول ابن عباس:[13] أي إله الخلق كله، السموات كلّهنّ ومن فيهنّ ومن بينهنّ مما يعلم ولا يعلم.[14]

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الَاسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِيْنَ ﴾[15]

قد ورد فنّ التغليب في الآية الكريمة في الكلمة "عرضهم". وقد ذكر سبحانه وتعالى ضمير جمع الذكور العقلاء هناك، ولم يذكر "عرضَها" أو "عرضَهنّ" والغرض لاستخدام الضمير "هُم"، هي إذا جمع من يعقل ومالا يعقل بلفظ ،يعبر بضمير من يعقل على مالا يعقل بطريقة التغليب.

وبيّن القنوجي هذا النوع من التغليب في الضمير "هم" يعني تلك الأشخاص، وإنما قال عرضهم ولم يقل عرضها لتغليب العقلاء.[16]

﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾[17]

التغليب في هذه الآية المذكورة تحت الصيغة "قانتون" وإنما جاءت هذه الصيغة بجمع المذكر السالم المختصة بالعقلاء على حكم التغليب.

وعند القنوجي المراد بالصيغة "قانتون" أي مطيعون ومقرون له بالعبودية، والقانت المطيع الخاضع أي كل من في السموات والأرض كائناً ما كان من أولى العلم وغيرهم مطيعون له خاضعون بالعظمة، خاشعون لجلالة.[18]

﴿ وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾[19]

فن التغليب وارد هاهنا تحت لفظ "ما"، وهذا من المعلوم إذا جاءت العبارة بـــــ "ما" فهناك تغليب للكثرة إذا الأكثر عدداً من المخلوقات ما لا يعقل، فهكذا أن "ما" أنها مختصة لغير العقلاء فاستعمالها هنا في العقلاء وغيرهم على سبيل التغليب.

هكذا أشار القنوجي إلى التغليب في هذه الآية قائلاً: أي مخلوقاته سبحانه يتصرف فيها كيف يشاء وعلى ما يريد، وعبر بـــــ "ما" تغليباً لغير العقلاء على العقلاء لكثرتها أو لتنزيل العقلاء منزلة غيرهم إظهارا لحقارتهم في بيان مقام عظمته تعالى.[20]

ثانياً: تغليب المذكر على المؤنث:

قد أجمع أهل اللسان العربي على تغليب المذكر على المؤنث في الجموع ونحوها، أي مخاطبة الرجال والنساء مجتمعين تحت صيغة الذكور، والنساء تبع الرجال بطريق التغليب.

ومن أمثلة التغليب قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[21]

نجد التغليب في الآية الكريمة تحت الصيغة "اهبطوا" وعدّت حواء عليها السلام في هذه الصيغة على طريق التغليب لأن هذه الصيغة تستخدم للذكور ولكن هناك غلّب جانب المذكر على المؤنث بحكم التغليب.

وفسّر القنوجي هذه الصيغة "اهبطوا" أي أنزلوا إلى الأرض، خطاب لآدم وحواء وخوطبا بما يخاطب به الجمع الإثنين أقل الجمع عند البعض من أئمة العربية، وقيل إنه خطاب لهما ولإبليس وللحية، فهبط آدم بسرنديب[22] من أرض الهند[23] على جبل، وأهبطت حواء بجدة[24] وإبليس بالأبلة[25] والحيّة بأصبهان.[26] وقيل: خطاب لهما ولذريتهما لأنهما كان أصل هذا النوع الإنساني جعلاً بمنزلته.[27]

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[28]

قد ورد فن التغليب في هذه الآية في صيغتين "تعفوا" و"تنسوا"، وهناك الخطاب للرجال والنساء معاً، فيمكن أن نقول هٰهنا وردت التغليب، فعدّت الأنثى في المذكر على سبيل تغليب المذكر على المؤنث.

ونجد الاشارة إلى التغليب في الآية المذكورة في تفسير "فتح البيان" قيل: هو الخطاب للرجال والنساء تغليباً أي أوفوا بعضكم أيها الرجال والنساء تغليباً أي أوفوا بعضكم أيها الرجال والنساء أقرب للتقوى، والمراد بالتقوى الألفة وطيب النفس من الجانبين.[29]

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾[30]

قد جاء فنّ التغليب في هذه الآية تحت فعل "أقرضوا" هناك ذكر الله سبحانه وتعالى صيغة الذكور ولكن يراد بذلك الإناث أيضاً على طريق التغليب لأن النساء تتبع الرجال، وهذا من المعلوم أن القرض مطلوب هاهنا من الرجال والنساء كليهما بحكم تغليب الذكور على الإناث. وفسّر القنوجي هذه الصيغة "أقرضوا" أي معطوف على اسم الفاعل في المصدّقين والمصدّقات.[31]

ثالثا: تغليب المتكلم على المخاطب والمخاطب على الغائب:

من مواطن التغليب قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِيْنَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[32]

وجاء فنّ التغليب هذه الآية حيث خلق الله سبحانه وتعالى المخاطبين في الآية وهكذا خلق الذين من قبلهم، وهناك غلّب المخاطبين على الغائبين وخصّ المخاطبين هاهناعلى سبيل تغليب المخاطب على الغائب لأنّ التقوى مطلوب من الجميع، أي الحاضرين والغائبين معاً.

وقد فسّر صديق حسن القنوجي هذه الآية أنّ الخطاب لأهل مكة، ويا أيها الذين آمنوا خطاب لأهل المدينة، وهو هنا خطاب عام لسائر المكلّفين.[33]

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[34]

التغليب البلاغي وارد في قوله سبحانه "يا ايها الذين آمنوا" ويراد هناك بالذين "آمنوا" أهل الكتاب كلّهم ووصفهم بالإيمان على سبيل التغليب وإطلاق لفظ الإيمان عليهم لأنّ أهل الكتاب مؤمنون بنبّيهم وكتابهم.

وأشار صديق حسن إلى التغليب في الآية المذكورة قائلاً: لما ذكر سبحانه وتعالى أن الناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف: مؤمنين وكافرين ومنافقين، أمرهم بعد ذلك ما يكون ملة واحدة، وإنما أطلق على الثلاث الطوائف لفظ الإيمان لأن أهل الكتاب مؤمنون نبيّهم وكتابهم، والمنافق مؤمن بلسانه وإن كان غير مؤمن بقلبه.[35]

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[36]

نجد الإشارة إلى التغليب في التفاسير العربية المختلفة تحت فعل "يخافا" و"يقيما". الألف في يخافا ويقيما عائد على صنفي الزوجين، وهو من باب الالتفات، لأنه إذا اجتمع مخاطب وغائب، وأسند إليهما حكم كان التغليب للمخاطب، فتقول: أنت وزيد تخرجان، ولا يجوز يخرجان، وكذلك مع المتكلم نحو: أنا وزيد نخرج، ولما كان الاستثناء بعد معنى الجملة للخطاب جاز الالتفات، ولو جرى على النسق الأوّل لكان: إلا أن تخافوا أن لا تقيموا، ترك إقامة حدود الله فيما يلزمهما من حقوق الزوجية.[37] وفي تفسير "روح المعاني" المراد بالفعل "يخافا" أي الزوجان كلاهما أو أحدهما، و"يقما" أي بترك إقامة مواجب الزوجية غير منتظم معه لأن المعبر عنه في الخطاب الأزواج فقط وفي الغيبة الأزواج والزوجات.[38]

وعند صديق حسن المراد بقوله: "يخافا" أي يعلم الزوجان من أنفسهما، فيه التفات عن الخطاب إلى الغيبة.[39]

﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِيْنَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[40]

كما من المعلوم أن الله سبحانه وتعالى خاطب عيسى عليه السلام في الآية المذكورة، والضمير في "مرجعكم" من ضمائر المخاطبين، وتستعمل الضمير هناك لعيسى عليه السلام والمتبعين له والذين كفروا به، فغلّب المخاطبين على الغائبين، فهذا من باب تغليب المخاطب على الغائب.

وعند صديق حسن القنوجي مرجع الفريقين أي الذين اتبعوا عيسى والذين كفروا به.[41]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالَارْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[42]

بيّن أبو سعود التغليب هناك قائلاً: الخطاب يعم حكمة جميع المكلفين عند النزول ومن سينتظم في سلكهم من الموجودين حينئذ، والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة عند انتظامهم فيه لكن لا بطريق الحقيقة فإن الخطاب المشافهة لا يتناول القاصرين عن درجة التكليف إلا عند الحنابلة بل إما بطريق تغليب الفريق الأول على الآخيرين.[43]

وقال صديق حسن في تفسير الآية ﴿يا أيها الناس﴾: المراد بهم الموجودون عند الخطاب من بني آدم وهم أهل مكة، ويدخل فيه من سيوجد بدليل خارجي وهو الإجماع على أنّهم مكلّفون بما كلّف به الموجودون، وعند الحنابلة

خطاب المشافهة يتناول القاصرين عن درجة التكليف فينتظم في سلكهم من الحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة أو هو بطريق الموجودين على من لم يوجد.(44)

رابعاً: تغليب المتصف بالشيء على مالم يتصف به:

كقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾(45)

اتّفق المفسرون على التغليب هاهنا في الآية(46) لأن النخيل والأعناب كانا أكرم الشجر وأكثرها نفعاً. خصّهما بالذكر وجعل الجنة منهما وإنّ كانت محتوية على سائر الأشجار تغليباً لهما على غيرهما. ثم اردفهما ذكر كل الثمرات، وهذا من باب تغليب المتصف بالشيء على ما لم يتصف به.

وعند صديق حسن القنوجي خصّ النخيل والأعناب بالذكر مع قوله تعالى ﴿ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ لكونهما أكرم الشجر وأشرف الفواكه جامعين لفنون المنافع لما فيهما من الغذا التفكه وهذه الجمل صفات للجنة.(47)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الَانْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾(48)

التغليب وارد في الآية المذكورة تحت الكلمة "الأنعام" كما النعم يختصّ بالإبل والجمع الأنعام ولكن هناك غلب النعم على غيرها من الأنعام على طريق التغليب، وهذا من باب تغليب المتصف بالشيء على ما لم يتصف به.

وعند صديق حسن القنوجي المراد بالأنعام أي إسم للإبل والبقر والغنم سميت بذلك لما في مشيتها من اللّين، وقيل: بهيمة الأنعام وحشيتها كالظباء وبقر الوحش والحمر الوحشية وغير ذلك.(49)

خامساً: تغليب الأكثر على الأقل:

كما قوله عزّ وجل: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾(50)

نجد الإشارة إلى فن التغليب هناك في الصيغة "الكافرين" كما من المعلوم هناك ذكر الكفار على طريق تغليب الأكثر على الأقل، أي أنّ النار موجودة ومهيأة للكفار ولكل من اتصف بوصفهم يعني لمن كان مثل الكافرين على الكفر، فهذا من باب تغليب الأكثر على الأقل.

وبيّن هذا المفهوم القنوجي في تفسير قوله تعالى "كافرين" أي لمن كان مثل ما أنتم عليه من الكفر ولما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقبة بجزاء المؤمنين يجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد كما هي عادته سبحانه وتعالى في كتابه العزيز لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعة وتثبيط عباده الكافرين عن معاصيه.(51)

﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾(52)

وجاء التغليب في الآية المباركة تحت اللفظ "الناس" ويراد من الآية أي من لم يتب من الكافرين حتى مات وأنهم ملعونون أيضاً بعد الممات وعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولكن ليست اللعنة عليهم من جميع الناس لأن قومهم لا يلعنونهم، وهذه اللعنة من أكثر الناس يطلق عليها لعنة الناس تغليباً لحكم الأكثر على الأقل.

وهكذا وضحّ القنوجي هذا النوع من التغليب في اللفظ "الناس" قائلاً: أما في الدنيا ففي الناس المسلم والكافر، ومن يعلم بالعاصي والمعصية ومن لا يعلم فلا يتأتي اللعن له من جميع الناس، وقيل في الدنيا، والمراد يلعنه غالب الناس أو كل من علم بمعصية منهم.(53)

سادساً: تغليب الجنس الكثير الأفراد على فرد من غير هذا الجنس مغموز فيها بينهم:

ومن أمثلته قوله عزّ وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾(54)

إن التغليب موجود في الآية المذكورة ﴿إلّا إبليس﴾ حيث هناك غلب الملائكة على إبليس وهو ليس منهم، ويطلق اسم الجنس على الجميع من حيث تغليب الجنس الكثير الأفراد على فرد من غير هذا الجنس مغموز فيما بينهم.

وعند صديق حسن القنوجي هناك الاستثناء متصل بتغليب الملائكة على إبليس لأنه كان منفرداً بينهم. أو كما قيل إن الملائكة جنساً يقال لهم الجن وقيل غير ذلك.(55)

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ O إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَO﴾(56)

قد جاء فن التغليب هناك بحيث عدّ إبليس من الملائكة تغليباً مع أنه كان من الجن وغلب الملائكة على إبليس، فهذا من باب تغليب الجنس الكثير الأفراد على فرد من غير هذا

الجنس مغموز فيما بينهم.

وبيّن القنوجي التغليب في قوله تعالى (إلّا إبليس) الاستثناء متّصل على تقدير أنه كان متصفاً بصفات الملائكة داخلاً في عدادهم فغلبوا عليه، أو منقطع على ما هو الظاهر من عدم دخوله فيهم.(57)

سابعاً: تغليب الموجود على مالم يوجد:

كما قوله تعالى: ﴿ والَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾(58)

نجد الإشارة إلى تغليب الموجود على مالم يوجد في الفعل "أنزل" أي القرآن الحكيم وهناك غلّب الموجود على مالم يوجد لأن الإيمان ببعض المنزل أي الكتاب يقتضى الإيمان على الكل لأن موجب الإيمان وحده والظاهر أن الإنسان الذي يؤمن بما أنزل يستمر إيمانه على الجمع ما ينزل على الرسول، فهذا من باب تغليب الموجود على مالم يوجد.

وعند صديق حسن القنوجي المراد به ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلّم وهو القرآن بأسره والشريعة عن آخرها، والتعبير بالماضي مع كون بعضه مترقباً لتغليب المحقق على المصدر أو لتنزيل ما في شرف الوقوع منزلة الواقع.(59)

ثامناً: تغليب الإسلام:

كما قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾(60)

التغليب وارد هناك في الآية "درجات"، وهذا من المعلوم أن لكل الفريقين الصالح والفاسق، المؤمن والكافر مراتب ومنازل، وبسبب جزاء الأعمال من الخير والشرّ، فدرجات المؤمنين عالية ودرجات الكافرين سافلة، وجاءت درجات هنا على طريق التغليب وفيه تغليب الدرجات على الدركات، فهذا من باب تغليب الإسلام.

ووضّح صديق حسن القنوجي هذا النوع من التغليب في قوله تعالى (درجات) أي لكل فريق من المؤمنين والكافرين والأبرار والفجار من الجن والإنس، ومراتب عندالله يوم القيامة بأعمالهم ودرجات أهل النار تذهب سفلاً، ودرجات أهل الجنة تذهب علوًا، ومراتب أهل النار يقال له دركات بالكاف.(61)

تاسعاً: تغليب ما وقع بوجه مخصوص على ما وقع لغير هذا الوجه:

من أمثلته القرآنية قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[62]

قد جاء التغليب أي تغليب بوجه مخصوص على ما وقع بغير هذا الوجه في الآية المذكورة تحت الجملة "يداك" يعني ما قدّم يدك من أي خير أو شرّ ويراد هناك من "يداك" الأنفس وجملة البدن على سبيل التغليب.

وعند صديق حسن القنوجي عبّر باليد عن جملة البدن لكون مباشرة المعاصي تكون بها في الغلب.[63]

عاشراً: تغليب الأشهر:

كما قوله عزّوجل: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾[64]

نجد الإشارة إلى التغليب هاهنا في اللفظ "المشرقين" عند كثير من المفسرين.[65]

ويراد هناك المشرق والمغرب على طريق التغليب، فغلّب هاهنا المشرق على المغرب، وهذا من باب تغليب الأشهر.

وخلاصة القول أنّ التغليب ظاهرة لغوية مهمة وبارزة ووردت في الآيات القرآنية المتعددة، وفي كتب النحويين واللغويين والبلاغيين والمفسرين كثيراً. فجاءت هذه الدراسة محاولة تقديم الآيات القرآنية المتعلقة بهذه الظاهرة البلاغية في تفسير كبير ونادرٍ "فتح البيان في مقاصد القرآن" والكشف أيضاً عن جهود العلامة السيد صديق حسن القنوجي في عرض هذا الفن البلاغي "التغليب" بدراسة المسائل المتصلة لها. ونجد إن هذه الظاهرة لها أثر في الآيات القرآنية والتفاسير المختلفة أثراً واضحاً كما بيّنت في تفسير "فتح البيان في مقاصد القرآن".

هوامش

1. اللكنوي، عبدالحي: نزهة الخواطر ووبهجة المسامع والنواظر، بيروت: دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1999م، 187/8
2. القنوجي، صديق حسن خان، أبجد العلوم، لاهور: المكتبة القدوسية الطبعة الأولى، 1357هـ، 1/ مقدمة المؤلف
3. فتح أوله، وتشديد ثانيه، وآخره جيم، موضع في بلاد الهند، وقيل إنها أجمة، (الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله: معجم البلدان، بيروت: دار صادر، الطبعة الثانية، 1995م، 409/4)
4. اللكنوي، عبدالحي، نزهة الخواطر، 194/8-187
5. المصدر السابق، 191/8-192
6. المصدر السابق، 194/8
7. الإفريقي، ابن منظور: لسان العرب، بيروت: دار صادر، الطبعة الثالثة، 1414هـ، 652/1
8. أبو حاقة، أحمد: معجم النفائس الوسيط، بيروت: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1428هـ، ص 895
9. التفتازاني، سعد الدين: مختصر المعاني، بيروت: دار الكتب العلمية، بدون رقم الطبعة، 2003م، 84/1
10. الجرجاني، علي بن محمد الشريف: التعريفات، بيروت: مكتبة لبنان، ص 65
11. الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبدالله: البرهان في علوم القرآن، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2000م، ص 636
12. سورة الفاتحة: 1
13. هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب، ولد في الشعب قبل الخروج بني هاشم منه قبل الهجرة بثلاثة سنين، هو الإمام البحر، عالم العصر، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلّم وإمام التفسير. وتوفّي بالطائف في سنة ثمان وستين. (الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد أحمد: تذكرة الحفاظ، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1998م، 33/1)
14. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1420هـ، 37-36/1
15. سورة البقرة: 31
16. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 96-95/1
17. سورة البقرة: 116
18. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 186/1

19. سورة آل عمران: 109
20. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 515/1
21. سورة البقرة: 38
22. بفتح أوّله وثانيه، وسكون النون ودال مهملة مكسورة، وياء مثناة من تحت، وباء موحدة، ديب بلغة الهنود: هي الجزيرة العظيمة في بحر هركند بأقصى بلاد الهند وفي سرنديب الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السلام، يقال له الرّهون. (الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله: معجم البلدان، بيروت: دار صادر، الطبعة الثانية، 1995م، 216/3)
23. إن الهند تاريخاً يحوي حضارات عريقة، ولكن ذاك التاريخ قد اكتنفه الغموض، وانطوى دون أن يدون، و لم يسطر للهند تاريخ إلا بعد المغازي الإسلامية (لوبون، غوستاف (الدكتور): حضارات الهند، ترجمة: عادل زعتير، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، 1367هـ، ص: 206)
24. بالضم والتشديد والجدّة في الأصل الطريقة، وجدّة: بلد ساحل بحر اليمن وهي فرضة مكة، بينها وبين مكة ثلاث ليال عن الزمخشري، وبين جدّة وعدن نحو شهر، وبينها وبين ساحل الجحفة خمس مراحل وينسب إلى جدّة جماعة. (الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله: معجم البلدان، 114/2-115)
25. الأبلّة بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة، لأن البصرة مصرّت في أيّام عمر بن الخطّاب، وكانت الأبلّة حينئذ مدينة فيها مسالح من قبل كسرى، (الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله: معجم البلدان، 77/1)
26. هي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، ويسرفون في وصف عظمها حتى يتجاوزوا حدّ الاقتصاد إلى غاية الإسراف. وأصبهان: اسم للإقليم بأسره وكانت مدينتها أوّلا جيّا ثم صارت اليهودية، وهي من نواحي الجبل في آخر الإقليم الرابع. (الحموي: شهاب الدين ياقوت بن عبدالله: معجم البلدان، 206/1)
27. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 101/1
28. سورة البقرة: 237
29. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 345/1
30. سورة الحديد: 18
31. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 546/6
32. سورة البقرة: 21
33. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 77/1
34. سورة البقرة: 208
35. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 49/1
36. سورة البقرة: 229

37. الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي يوسف بن حيان أثير الدين: البحر المحيط في تفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت: دار الفكر، 1420هـ، 206/2
38. الآلوسي، شهادب الدين محمود بن عبدالله: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبدالباري، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ، 140/2
39. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 325/1
40. سورة آل عمران: 55
41. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 477/1
42. سورة النساء، 1
43. العمادي، محمد بن محمود أبو سعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، بيروت: دار أحياء التراث العربي، بدون رقم الطبعة والسنة ، 2/ 136
44. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 3/1-4
45. سورة البقرة: 266
46. الزمخشري، محمود بن عمرو: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، بيروت: دار الكتب العربي، الطبعة الثالثة، 1407هـ، 42/1ـ اسماعيل حقي: روح البيان في تفسير القرآن، بيروت: دار الفكر، بدون الطبعة والسنة، 427/1
47. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 391/1
48. سورة المائدة: 1
49. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 198/2
50. سورة البقرة: 24
51. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 81/1
52. سورة البقرة: 161
53. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 228/1
54. سورة الأعراف: 11
55. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 481/2
56. سورة ص: 73-74
57. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 43/6
58. سورة البقرة: 4
59. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 63/1
60. سورة الأحقاف: 19
61. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 304/6

62. سورة الحج: 10
63. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 452/4
64. سورة الزخرف: 38
65. ابن كثير، إسماعيل بن عمر (الدمشقي، القرشي): تفسر القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1419هـ، 381/6

ـــ البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط أبي بكر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، بدون رقم الطبعة والسنة، 29/7

ـــ إسماعيل حقي: روح البيان في تفسير القرآن، 284/8

ـــ الآلوسي، شهاب الدين: روح المعاني، 82/25

ـــ الشربيني، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب: السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، القاهرة: مطبع بولاق الأميرية، 1258هـ، 449/3

ـــ ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد: التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984هـ، 213/25

الصابوني، محمد علي: صفوة التفاسير، القاهرة: دار الصابوني للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 1417هـ، 146/3

66. القنوجي، صديق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، 237/6